

الأدب والمعرفة

- ١ -

أين يقع الأدب في كتاب المعرفة؟ هل يشغل شيئاً من صفحاته أو هوامشه، أو أنه بنية «عاطفية» بعيدة بطبيعتها عن أبواب المعرفة العقلية؟
تثور هذه الأسئلة وأمثالها في الأذهان بين الحين والآخر كلما دار الحديث حول مفهوم الأدب وأثره في حياة الأفراد والمجتمعات، كما تظهر عند البحث في أبعاد المعرفة، وجوانبها المختلفة. ويهم دارس الأدب - كما يهم دارس المعرفة - أن يصل إلى جواب موضوعي يفصل في العلاقة بينهما، وهذا ما آثرت أن أقدم به بحثي.

- ٢ -

ثمة طرق كثيرة لبحث العلاقة بين الأدب والمعرفة، ولعل أنسبها لدارس الأدب هي الطريق التي تنطلق من البحث في طبيعة الأدب ووظيفته وتنتهي إلى كشف خيوط المعرفة في العمل الأدبي، وهو ما سأسلكه في الفقرات القادمة.
سعى الباحثون - منذ القديم - لمعرفة طبيعة الأدب، وكانت وسيلتهم المفضلة تعريف الأدب، لأن التعريف «الجامع المانع» يضع الخصائص والصفات في دائرة الضوء ويكشف العلاقات القائمة بينه وبين النشاطات الإنسانية الأخرى.

غير أن النظرة التجزيئية التي غلبت عليهم - يونانيين وعرباً على حد سواء - جعلتهم ينظرون إلى الأدب من خلال أجناسه المتفرقة، ويعرفون كل جنس على حدة دون أن يجمعوا هذه الأجناس في نظرة شمولية متكاملة، على الرغم من إدراكهم الوثيق للعلاقات الحميمة بينها^(١).

ويبدو من جملة تعريفاتهم أنهم يعدون الأجناس الأدبية إبداعات إنسانية تحمل قضايا من حياة الإنسان ومعتقداته، وتعرض مشكلاته الحساسة، وبحثه الملهوف عن حلول مقنعة لها، وإحساساته التي تصاحب المشكلات وحلولها.

وتعد التعريفات اليونانية أقدم تعريفات مدونة وصلتنا، وأكثرها تأثيراً في المفهومات الأوربية للأدب طوال العصور الماضية، وأشهر هذه التعريفات تعريفات أفلاطون وأرسطو.

فالخطابة عند أفلاطون هي طريق الوصول إلى المعرفة أو تشخيص هذه المعرفة^(٢). وقد أخذ أرسطو هذا المفهوم من أفلاطون ووسعه وكتب كتاباً خاصاً عن الخطابة، وقرر أنها تؤدي إلى غاية خلقية فنية، وتعين على إقرار الحق والعدل بتزويد الخطباء بوسائل البراهين الصحيحة^(٣). والشعر عند أرسطو محاكاة لأفعال الناس: خيرها وشرها، فمنه ما يحاكي النواحي الفاضلة المحمودة ويظهر المواقف التي يبدو فيها نبل الإنسان وأعماله الخيرة، كالمدائح والملحمة والمأساة «التراجيديا»، ومنه ما يظهر المواقف المرذولة كالهجاء والمهابة «الكوميديا»^(٤).

أما العرب الجاهليون فكان الشعر ديوانهم الأكبر^(٥)، وخزانة علمهم ومعارفهم، شغلوا بإبداعه وروايته عن تعريفه ودراسته، وكانت الخطابة قسيمة الشعر في الممارسة الواقعية للأدب، تنقل الحكمة والخبرة والقضية المهمة من الخطيب إلى الآخرين، وتقوم بدور كبير في الصلح بين الأفراد والقبائل وفي تحمل الديات والمفاخرات والمحالقات...

وكان الشعر مقدماً على الخطابة، وعندما تكسب الشعراء بشعرهم تقدمت الخطابة وارتبطت بالزعامة والأحداث الكبيرة.

وعندما انتقل العرب - في ظل الإسلام - إلى الحضارة وتدوين المعارف عرفوا الشعر تعريفات شتى لا تخرج عن كونه أداة فنية تنقل المعرفة والعاطفة من الشاعر الذي يفترض فيه الخبرة والحس المهرف إلى المتلقي، كقول قدامة ابن جعفر المشهور: «الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى» (٦)، وقول الباقلاني: «تصوير ما في النفس للغير» (٧)، وقول ابن خلدون: «هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف» (٨).

وقد أضاف ابن رشيقي إلى التعريف توضيحاً يبين دور الخبرة الجديدة والعاطفة في الشعر والشاعر، فقال في معرض حديثه عن مصطلح الشاعر: «وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بها لا يشعر به غيره. فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه أو استطراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص فيما أطاله سواء من الألفاظ أو صرف معنى من وجه إلى وجه كان اسم الشاعر عليه مجازاً، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير» (٩).

- ٤ -

وخلال رحلة الأدب في العصور الماضية قامت أجناسه الشعرية والنثرية بدور كبير في إبداع جوانب من المعرفة الإنسانية، ونقلتها - ممزوجة بالشعور الفردي المتوهج - إلى الأجيال المتوالية، وقدمت صوراً رائعة لمواقف الأفراد والأمم، ومشاعرهم المختلفة: الحب والكراهة والسرور والغضب والغيرة والحقد... إلخ، وحملت قضايا فكرية وعقدية مهمة كقضايا الموت والحياة والألوهية والقدر والعلاقة بين الإنسان والله، والعلاقة بين الإنسان والإنسان، وقضايا الغيبات، وقضايا الواقع والحياة. ويعد المسرح اليوناني أوسع ميدان للقضايا العقدية وما يرتبط بها من قضايا فكرية وفلسفية، وما زالت آثارها في الأدب وفي الفكر حتى وقتنا المعاصر (١٠).

وأما الأدب العربي القديم فقد حمل قضايا عقدية وفكرية كثيرة، بل حمل فلسفات وتطلعات خاصة في قضايا الحياة والغيب على نحو ما تجده في شعر المتنبي وأبي العلاء المعري، والحلاج، وابن عربي، وفي قصص ابن سينا، وابن طفيل، والسهورودي، وكان بعضها يصدر عن منابع إسلامية صافية، وبعضها الآخر يتأثر بمصادر هندية أو يونانية تحدث اضطرابات شديدة في التصور والرؤية.

إضافة إلى ما سبق حمل الأدب قضايا الحياة السياسية والاجتماعية، أما القضايا السياسية فيكفي أن نشير إلى بعض الجوانب في الشعر العربي القديم لنستدل بها على انغماسه في الوظيفة السياسية وارتباطاتها، فقد اشتغل الشعر بأول صراع قام حول الخلافة، وجسد آراء الأحزاب المتصارعة على اختلافها وتضادها^(١١). واشتغل بالصدام الطويل بين المسلمين والروم على الثغور^(١٢)، ثم بالمعارك مع الصليبيين والمغول في الشرق^(١٣)، والنصارى في الأندلس^(١٤)، وكان وسيلة إعلام فعالة تنقل الخبر الموجه، ووجهة النظر، وتسجل الأحداث وترويها مصحوبة بعواطف فياضة.

ولم يكن دور الأدب إيجابياً في كل الحالات، بل كان له دور سلبي استطاع فيه أن يشوه الحقيقة التاريخية، ويسيء إلى شخصيات عرفت بصلاحها وتأثيرها الإيجابي في أحداث التاريخ. وأبرز شاهدين لذلك الصورة الشوهاء التي صنعتها قصائد المتنبي لكافور الأخشيدي^(١٥)، والصورة الكاريكاتورية العجيبة التي رسمتها قصص الأسعد بن مماتي لبهاء الدين قراقوش^(١٦).

أما الوظيفة الاجتماعية فلم تكن في الأدب العربي القديم في حجم الوظائف الأخرى، غير أنها لم تغب عنه قط؛ فقد صور الأدباء - في معرض حديثهم عن موضوعات أخرى - جوانب الحياة الاجتماعية وبعض مشكلاتها، فحمل

الشعر الجاهلي بعض قلق الفرد وضيقه بالاضطرابات والحروب الدائمة بين القبائل^(١٧)، وكان شعر بعض الصعاليك - ك شعر عروة بن الورد - ثورة اجتماعية على سلبيات النظام القبلي، وتطلعاً مبكراً إلى نظام سديد للتعايش والتكافل الاجتماعي^(١٨). وقد ظهرت في العصر العباسي نماذج شعرية للنقد الاجتماعي في شعر أبي العتاهية وابن الرومي وأبي العلاء المعري^(١٩). . . الخ، تندد بالفساد والفضوى واضطرابات العلاقات الإنسانية. وفي ميدان النثر كانت بعض المقامات والرسائل الأدبية سجلاً للقضايا الاجتماعية التي تضغط على الفرد والمجتمع منذ القرن الرابع الهجري إلى مشارف العصر الحديث^(٢٠).

غير أن المهمة «المعرفية» الكبيرة التي قام بها الأدب هي الوظيفة التربوية، فقد كانت نصوصه الشعرية والثرية هي الدرس الأول والأهم عند العرب الجاهليين؛ لكونها علماً لم يكن للعرب علم أصح منه، ولأنها المستودع الثقافي الهائل الذي يخترن خبراتهم وحكمتهم وأخبارهم. وطبيعي أن ينشأ عليها الفتيان، ويصقلوا بها قدراتهم اللغوية والفنية.

وقد ظلت هذه الوظيفة قائمة في ظل الإسلام، ولكنها تراجعت إلى الصف التالي بعد القرآن والحديث، فقد كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أبي موسى الأشعري يقول: مر من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معاني الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب^(٢١).

هذه القضايا والوظائف والصور. . تدل جميعها على أن الأدب - الشعر والنثر - كان أداة نقل الخبرة والإحساس بين أفراد المجتمع، بل بين أنحاء العالم الإسلامي وأجياله المتعاقبة، وأنه باب مهم في كتاب المعرفة. وقد قالت عنه دائرة المعارف الإسلامية بحق: إنه «يدل على جملة المعارف التي تسمو بالذهن والتي تبدو أكثر صلاحية في تحسين العلاقات الاجتماعية»^(٢٢).

وفي العصر الحديث برز مصطلح «الأدب» ليدل على التعبير الجميل عن تجربة شعورية، ويشمل أجناسه المتفرقة، ويظهر الخصائص العامة المشتركة بينها. وقد استخدمه الدارسون والنقاد والمربون بهذه الدلالة، واختلفوا في شموله أعمالاً لم تكن تحسب منه في العصور الماضية، كالتاريخ والقانون والكتابات العلمية ذات الأسلوب المشرق^(٢٣)، وظهرت علوم جديدة تنسب إليه كتاريخ الأدب المقارن والنقد الأدبي، وشاع مصطلحه، ونشأت مصطلحات كثيرة ترتبط به كالمذاهب الأدبية والمدارس الأدبية وأدب الأطفال ونظرية الأدب ... إلخ

وقد شهد العصر الحديث تطوراً في الأجناس الأدبية، فضعفت الخطابة واختفت المقامة وتأخرت مرتبة الشعر، وظهرت القصة والمسرحية وانتشرتا بسرعة فائقة. ولئن كان للقصة جذور تراثية^(٢٤) فإنها قد تغربت عن جذورها واتصلت بالجذور الغربية خلال وقت قصير، أما المسرحية فليس لها أية جذور في تراثنا العربي^(٢٥)، وقد أدخلها مارون النقاش وتلاميذه نقلاً عن الإيطالية والفرنسية والإنكليزية^(٢٦)، ولكن سرعان ما اجتذب هذان الجنس الأدبيان جماهير واسعة، وزاحما الشعر ونجحاً في زحزحته عن الصدارة وتأخيره إلى الصفوف الخلفية، ويكفي أن ننظر إلى واجهة أي من المكتبات أو نقرأ أرقام الطبع لنرى أن كل ديوان من الشعر يقابله عشر قصص أو مسرحيات مترجمة أو مؤلفة.

وقد ساعد التطور التقني هذين اللونين على التطور والتقدم، فظهور الإذاعة والسينما والتلفزيون، وحاجتها الكبيرة إلى نصوص قصصية ومسرحية جعلت القصة والمسرحية خبراً يومياً يبحث عنه المنتجون والمخرجون، ويدفعون بسخاء

للمؤلفين، والمترجمين بينما لم يجد الشعر أكثر من تشجيع وإلهام من بعض المجالات الأدبية، ومن خلال جوائز الدولة السنوية.

والجديد في الأدب الحديث عامة هو أن الجانب الفكري قد تضخم فيه وأصبح عنصراً مهماً من عناصره، فالشعر الغنائي - الذي يعتمد أساساً على العاطفة والخيال - تحول في نسبة كبيرة منه إلى معرض للقضايا الفكرية والعقدية. أما القصة والمسرحية فقد سبقتا في احتواء القضايا الفكرية وفي عرض الموضوعات الاجتماعية والسياسية والعقدية بأساليب ووجهات نظر مختلفة، وأصبحت هذه الأجناس مادة من مواد المعرفة المهمة تتعامل مع الماضي بالقصص والمسرحيات التاريخية، ومع الحاضر بالقصائد والمسرحيات الواقعية، وترنو إلى المستقبل عبر التطلعات والتنبؤات والدعوات الكثيرة التي تحملها.

ونظراً لما تحمله الوظيفة «المعرفية» الواسعة للأدب الحديث من آثار سلبية وإيجابية على القيم الإسلامية والمجتمع المسلم فإنني أترك الحديث المفصل عن جوانب المعرفة في الأدب الحديث، وأقتصر على هذه الآثار في الفصلين القادمين، ولكننا نستبق القول هنا لنؤكد أن العمل الأدبي في العصر الحديث أصبح شكلاً فنياً ينقل الخبرة والمتعة في آن واحد، ويتسلح بقوة هائلة لإقناع المتلقي والتسلل إلى قلبه وعقله، لتكوين مفهومات واقتناعات خاصة في أعماقه، وأصبح من اليسير أن نضع الأدب في كتاب المعرفة الإسلامية سواء بسبب ما يحمله من قضايا وأفكار، أو بسبب تعامله الكثيف مع الجماهير بكل مستوياتها الثقافية، وعبر الكتاب المطبوع والصحيفة والمجلة والإذاعة والتلفزيون والسينما والأشرطة المسموعة والمرئية.

الهوامش

- (١) يؤكد هذا الإدراك المقارنات التي عقدها بين الأجناس الأدبية المختلفة، ولا سيما المقارنات بين الشعر الملحمي والشعر المسرحي، أو بين الشعر والخطابة، وتعد مقارنات أرسطو من أشهر المقارنات القديمة بين الأجناس الأدبية.
- انظر نموذجًا لها في كتاب: فن الشعر ص ١٣٤-١٥٦ تحقيق د. شكرى عياد، ط: الكتاب العربي بمصر ١٩٦٧ م.
- وانظر نموذجًا لآراء الباحثين العرب في كتاب ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر ص ٧٨ تحقيق طه الحاجرى وزغلول سلام، القاهرة ١٩٥٦ م.
- أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة ١٣٢/٢، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة ١٩٣٩ م.
- (٢) انظر: د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ص ٢٩، دار نهضة مصر د. ت.
- (٣) السابق ص ٩٣.
- (٤) انظر: فن الشعر ص ٣٢.
- (٥) انظر: ابن سلام الجمحى، طبقات فحول الشعراء ص ٩٧، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف بمصر، وابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده ١/١٤١ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٦٣ م.
- (٦) قدامة بن جعفر: نقد الشعر ص ٣، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة د. ت.
- (٧) أبو بكر بن الطيب الباقلائي: إعجاز القرآن ١٨١، تحقيق السيد صقر، القاهرة ١٩٥١ م.
- (٨) مقدمة ابن خلدون: ١٢٩٥ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة ١٩٦٠ م.
- (٩) العمدة ١/٩٦.
- (١٠) انظر: د. علي عبد الواحد وافي، الأدب اليوناني في القديم ١٣٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م.
- (١١) انظر: د. نعمان القاضي، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ٣٣١-٥١٠، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م.
- (١٢) انظر مثلاً: د. محمود حسن عبد ربه، الحرب في شعر المتنبي ١/٣٨٨-٣٩٢ و ١١/٢-٥٤ و ١٢٩/٢-١٥١ و ٢/٢١٤، دار الشروق، جدة ١٩٧٩ م.
- (١٣) انظر: د. أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ٦١-١٠٥ و ٣٠٢-٣٢٣ و ٤٠٧-٥٢٠.
- (١٤) د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ١٧٧/٢-١٩٣ دار الثقافة، بيروت ١٩٦٢ م.
- (١٥) كان كافور عبدًا لحاكم مصر «الأخشيد»، وقد ارتقى عنده إلى أن صار وصيًا على ولديه، ثم تسلّم الحكم بعد وفاته باسم ولدي الأخشيد، ثم استقل به باسمه. وتذكر كتب التراجم أنه كان ذكيًا وحكيًا وعادلًا وفيه تقوى وصلاح، يدعى له على المنابر في مصر والحجاز والشام، وكانت أيامه سديدة وجهيلة، انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ٩٩/٤، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت.

(١٦) وهو أبو سعيد بن عبد الله الأسدي، وقراقوش لقبه ويعني «العقاب». كان وزير صلاح الدين الأيوبي، وكان عالماً ومهندساً فذاً وسياسياً محنكاً، هو الذي أشار على صلاح الدين ببناء قلعة القاهرة وخططها ونفذت بإشرافه، وكان صلاح الدين ينييه في إدارة مصر عند ما يخرج إلى الحروب، عرف بالصلاح والتقوى حتى ليقول عنه ابن خلكان: «وله حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين». وأما الأسعد بن ممتى فهو ناظر الدواوين بمصر، كان نصرانياً فأسلم، وسعى لينال حظوة في القصر، وكانت له ميول نحو الفاطميين، حاول أن يتزلف إلى صلاح الدين بشعره ونثره ولكن قراقوش كشف بعض خباياه، فاغتاظ الأسعد وخرج إلى حلب، وكتب كتابه «الفاشوش في أخبار قراقوش»، ولفق عليه حكايات عجيبة تجعله في منتهى الحمق والغباء والظلم. . . وكان أسلوب الكتاب مرحاً، وما يعجب العامة، فسار فيهم سيرورة عجيبة.

انظر مثلاً: وفيات الأعيان ٩١/٤ - ٩٧.

(١٧) انظر مثلاً: معلقة زهير بن أبي سلمى، وما قاله فيها في ذم الحرب وبيان ضرورها ومآسيها في الحياة الجاهلية. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى. صنعه أبو العباس ثعلب ١٩، الدار القومية القاهرة ١٩٦٤م.

(١٨) انظر: د. يوسف خليف. الشعراء الصعاليك، دار المعارف بمصر.

(١٩) انظر: د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني ٢٤/٣٢٣ ط ٣، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

(٢٠) انظر: د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ١٧/٢ - ٢١، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

(٢١) انظر: نص العبارة في: المبرد، الكامل ١٥/١ تحقيق محمد أبو الفضل والسيد شحاتة، مكتبة نهضة مصر.

(٢٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/٥٣٣، لجنة الترجمة والنشر. القاهرة ١٩٣٣م.

(٢٣) انظر: أوستن دارين ورينيه ويلك، نظرية الأدب ١٩، ترجمة محيي الدين صبحي، دمشق ١٩٧٢م.

(٢٤) انظر: د. محمد غنيمي هلال، في الأدب المقارن، ٢١٤ - ٢٣٥، دار نهضة مصر د. ت.

(٢٥) انظر: السابق ١٦٧.

(٢٦) انظر: السابق ١٧١.